رقص الدببة

عندما تحدثت معي إحداهن مؤخراً لا أعلم لماذا تذكرت الدب الراقص الذي أصبحت أتألم لمرآه مذ علمت كيف يتم تدريبه.. إنه بعد أن يُستأنس يوقَف في حيّزٍ عليه جمراتٌ متوقّدة، وكلما داس على جمرةٍ دُق له الطبل أو الآلة التي تستخدم لترقيصه بحيث تتزام النغمة مع وضع قدمه على جمرةٍ ما، ومن ثَمّ شعوره بالألم فيرفعها، ويُكرَّر هذا التعذيب قليلاً حتى ترتبط النغمة ارتباطاً شرطياً بالشعور بألم الحرق، ثم يُستبعد الجمر ويُكتفى بالدق، فيستجيب الدب وإلى الأبد للأنغام كما يملي عليه الحذر من الحرق، وإن أصبح الجمر وهماً ليس إلا..

هكذا يتصرف كثيرٌ من الموالين لطغاة هذا الزمن أينما كانوا، القدامى منهم والجدد.. إنهم يبدون مبَرمجين ليبرروا كل شرورهم.. ليهتفوا لهم مهما حدث ومهما رأوا منهم، وكأنهم فُصلوا تماماً عن الواقع فظلوا يرقصون على أرضٍ لا وجود لها.. وبينما الدب الراقص يتعامل مع أرض غير موجودةٍ تجنباً للألم، يتعاملون هم مع أرض رقصتهم كأرضٍ مثاليةٍ من السخف ألا يراها الآخرون.

يحيرني في هؤلاء وفي غيرهم حتى من بعض معارضي الطغاة أيضاً أحادية الرؤية.. فهم يبدون دائماً وكأنهم جُبلوا على رؤية جانبٍ واحد. ينظرون إلى ضحايا من يؤيدونه وقد قُتلوا بالمئات والآلاف فلا تتحرك قلوبهم ولا تتوارى أعينهم رأفةً أو حتى خجلاً من ممارساته.. الدماء إن سالت من غيرهم تبدو لهم وكأنها ليست دماءً بشرية، ويرون جثث الأطفال فلا يتألمون..

وإن أنسَ لا أنسى تلك السياسية التي ابتسمت عندما رفع إليها الطرف الآخر في الحوار صورة أطفالٍ مكفّنين. ولم تُشح عابسةً بوجهها إلا عندما قال لها تخيلي أطفالك مكانهم..

أتساءل أحياناً.. هل أصبح القلب خاضعاً للبرمجة بحيث ينتقي ما يتعاطف معه؟ هل يمكن للقيم والمبادئ أن تكون مطاطيةً إلى هذه الدرجة؟ متى أصبحت المسافة بيننا وبين ديننا بهذا الإتساع؟

دلال خليفة

نشر بالملحق الثقافي للشرق بتاريخ ٢٠١٤/١/١٩م